مراجعات الكتب | Book Reviews

دراسة (تداخل المعارف ونهاية التخصص) لمحمد همام: عرض وتحليل

A Review of: "Knowledge Overlapping and the End of Specialisation" by Muhammad Homam

مصطفى العادل | Mustapha Eladel[1]

(1) مصطفى العادل، باحث في لسانيات العربية والنقد اللساني بجامعة محمد الأول-وجدة- المغرب.
البريد الإلكتروني: Mustaphaeladel123@gmail.com

ملخص البحث

يقدم هذا البحث عرضًا لأهم الأفكار الواردة في كتاب (تداخل المعارف ونهاية التخصص: دراسة في العلاقات بين العلوم)، ولا يتوقف عند حدود العرض والوصف، بل يتجاوز ذلك إلى مناقشة تلك الأفكار وتحليلها استنادًا إلى تصورات وآراء بعض الباحثين الذين كتبوا في هذا الحقل المعرفي أمثال طه عبد الرحمن وفتحي ملكاوي وعبد الرحمن بودرع وغيرهم.

ولعل من أبرز هذه القضايا -إضافة إلى وصف الكتاب والإشارة إلى معلومات عامة حوله- قضية مفهوم التداخل المعرفي وأبرز المصطلحات المستعملة للتعبير عن معنى التداخل والتواصل والتفاعل الذي يحدث بين العلوم والمعارف، وكذا قضية عوامل وخلفيات بروز أزمة التخصص، وعودة التداخل المعرفي من جديد في عالمنا المعاصر، إضافة إلى أهم معوقات نجاح التداخل المعرفي.

Abstract

This research provides a discussion of the major ideas given in the book entitled "***The Knowledge overlapping and the Specialization Ending: a Study in the Relationships between Sciences***", and does not stop at the limits of the discussion and the description, but it goes beyond that to discuss and analyse those ideas basing on the perceptions and opinions of some researchers who wrote in this field of knowledge, such as Taha Abdel Rahman, Fathi Malkaoui, Abdel Rahman Boudraa and others.

One of the most prominent of these issues –in addition to describing the book and referring to general information about it– is the one that concerns the concept of knowledge overlapping and the most prominent terms used to express the meaning of overlap, communication, and interaction that occurs between science and knowledge, as well as the issue of factors and backgrounds of the emergence of the crisis of specialization, and the return of knowledge overlapping again in our contemporary world, in addition to the most important obstacles to the success of the knowledge overlapping.

مقدمة

يُصاب المتأمّل في نسق العلوم وانتظامها في التراث العربي بما يشبه الصدمة، خاصة إذا استهوته المناهج الحديثة والنظريات الغربية ردحًا من الزمن؛ حيث يتّبع المسالك الضيقة في التخصص وتخصص التخصص، حتى إذا فقد معنى الإبداع في البحث وشعر بالاصطدام، استفاق فأدرك أن الطريق الحديثة في التعاطي مع المعارف والعلوم لا توصله إلى بر السلام، ولا تُنجيه من السير المتعب دون وجهة. وقد قادت هذه الحقيقة العلماء والباحثين في السنوات الأخيرة إلى الإيمان بفكرة التكامل المعرفي والدعوة إليها؛ يظهر ذلك من خلال مجموعة من المؤتمرات والندوات الوطنية والدولية، وجملة من الأبحاث والمقالات، وكذا الكتب والمجلات في هذا الموضوع.

إن للعلوم في التاريخ الإسلامي فلسفة خاصة، ومنطقًا فكريًّا خاصًّا، ومرجعية معرفية محددة، لا يسلم الجاهل بها؛ الساعي إلى مواصلة السير على نهجها دون الرجوع إليها، ودون النظر إلى العلوم والمعارف المستوردة نظرة نقدية لا تقديسية إسقاطية. ولأن قضية التكامل المعرفي من أهم هذه القضايا الفكرية والمنهجية، التي ميزت التراث العربي الإسلامي، فإن الدراسات العربية والإسلامية الحديثة لن تسلم من أخطاء ونواقص ما دامت لم تؤمن بحقيقة هذا التكامل المعرفي في تعاطيها مع القضايا المعرفية والعلمية للحضارة الإسلامية، وهو ما دفع بعض الباحثين إلى البحث في مسألة التداخل والتكامل المعرفيين، والسعي لتأسيس نظرية قائمة في التعامل مع العلوم والمعارف من هذه الزاوية.

ولعل دراسة همام الموسومة بـ (تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم) من أهم هذه الدراسات العلمية الجادة، لما أثارته من قضايا مركزية نظرية وتطبيقية في مسألة التداخل المعرفي، ولما فتحته من آفاق أمام الباحثين في هذا المجال.

لقد سعينا إلى عرض أهم الأفكار التي ناقشها الباحث همام في دراسته، مع إضافات من دراسات أخرى تناولت مسألة التكامل المعرفي، وكانت الغاية منها مقارنة آراء همام بآراء غيره، أو دعمها وتأكيدها بتصورات مماثلة، وحاولنا من جهة أخرى جمع أبرز القضايا في عناوين محددة، وذلك لأن همامًا أورد بعضها في مباحث متفرقة، فيشير إلى معنى التداخل أو تاريخ نشأته وبروزه من جديد أو خلفيات التخصص في أماكن متعددة ومتفرقة في الكتاب، ولمّا كان البحث في أساسه عرض ومراجعة للكتاب رأينا أن نقدم تعريفًا بالكاتب، ووصفًا للدراسة وظروف كتابتها وعتباتها الأساس.

وجاءت المراجعة في مقدمة وثلاثة مباحث، خصصنا الأول منها لعتبات الكتاب، فأشرنا فيه إلى معلومات حول الكتاب، إضافة إلى غلافه ومقدمته ومصادره وخاتمته. أما المبحث الثاني فقد أشرنا فيه إلى أبرز قضايا القسم الأول من الدراسة بعد محاولة جمعها وترتيبها، فجاءت هذه القضايا في أربعة محاور تتعلق بمفهوم التداخل المعرفي وأسرته المفهومية وخلفيات ظهور التخصص، وعوامل بروز التداخل من جديد وبعض معوقات نجاح التداخل المعرفي بين المعارف في العصر الحديث. في حين ناقشنا في المبحث الثالث أهم قضايا القسم الثاني من الدراسة وجاءت في محورين، يناقشان مسألة تداخل المعرفة الإسلامية بين فروعها، وبينها وبين المعارف الوافدة كالفلسفة والمنطق وعلم الكلام في فكر علمين من أعلام الحضارة العربية الإسلامية هما حجة الإسلام أبي حامد الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية.

وتبقى الدراسة -رغم تواضعها- صورة للجهد الطامح إلى متابعة أبرز الإصدارات الجادة في ثقافتنا العربية الإسلامية الحديثة، والإسهام في الحوار المعرفي بشأن قضايا في غاية الأهمية كما هو الشأن بالنسبة لقضية التداخل بين المعارف، كما أن المراجعة نتيجة تأمل طالب في بعض أفكار أستاذه، فلطالما اعتبرنا الباحث همامًا أستاذًا ينير طريقنا بإصداراته ومقالاته في مختلف المجالات الفكرية المعرفية والاجتماعية اليومية.

المبحث الأول: قراءة في عتبات الكتاب

يشمل هذا المبحث أربعة محاور، تناولنا فيهما جملة من القضايا العامة المتعلقة بالكتاب، وهو ما يطلق عليه عادة بالعتبات، ومنها طبيعة الكتاب وموضوعه وكاتبه، ودار النشر، والعنوان والغلاف والصورة، ويضاف إلى هذه القضايا في معظم الأحيان موضوع المقدمة وفهرست المحتويات وفهرست المراجع وخاتمة الكتاب، وقد اخترنا الإشارة إليها جميعها تحت مبحث عتبات الكتاب.

المحور الأول:
معلومات عامة حول الكتاب

يأتي كتاب (تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم)[٢] للدكتور والباحث المغربي محمد همام[٣]، ليخلص «عبر اشتغال نظري وتطبيقي إلى أن قيمة التخصص العلمي، لا تكون إلا في إطار الملك المشترك، والعلاقات المتداخلة مع التخصصات الأخرى»[٤]. وقد جاء الكتاب فيما يقرب من ٣٠٠ صفحة من الحجم الكبير، في طبعته الأولى سنة ٢٠١٧م، عن مركز نماء للبحوث والدراسات، ضمن الدراسات الفكرية التي يصدرها (رقم ٩).

وقد أحلنا هنا إلى السيرة العلمية للباحث ولو بشكل موجز، إيمانًا منا بأهميتها في مساعدة القارئ في فهم سليم لكثير من قضايا الكتاب، خاصة أن المعرفة مقترنة أبدًا بمختلف سياقاتها ومرجعياتها، ومرتبطة بكل أبعادها وعلاقاتها، التي يعتبر الكاتب أو صاحب النص من أبرزها وأهمها.

يضم كتاب (تداخل المعارف ونهاية التخصص) بعد فهرست المحتويات الذي افتُتح به الكتاب، تعريفًا بالكتاب ومقدمة، وقسمين كبيرين، يضم كل قسم منها قضايا عديدة، وُسم القسم الأول بـ(المعارف بين التخصص والتداخل)، شمل ست عشرة قضية بعد تمهيد للقسم، كما أنه وضع خلاصة مهمة قبل قضيتين من قضايا القسم الأول. أما القسم الثاني فقد عنونه الباحث بـ(الوعي النظري بتداخل المعارف في التراث المعرفي الإسلامي) وأشار فيه إلى ثلاث قضايا، ثم خاتمة جامعة للكتاب، فلائحة المصادر والمراجع المعتمدة. وخُتم الكتاب بأربع صفحات تضم إصدارات مركز نماء للبحوث والدراسات؛ التي تتوزع على دراسات شرعية ودراسات فكرية ودراسات الاختلاف والحوار والتعايش، ومجال التكوين ومجال التجارب، ودراسات الترجمات والتساؤلات والمراجعات المتعلقة بالفكر العربي المعاصر، ودراسات في الحالة الإسلامية، ودراسات صناعة البحث العلمي، وقراءات في الخطاب الشرعي، ثم حوارات

(٢) من إصدارات مركز نماء للبحوث والدراسات.

(٣) الكاتب والمفكر المغربي محمد همام ولد ونشأ بتزنيت إقليم سوس بالمغرب، أستاذ بكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بجامعة ابن زهر بأكادير، عمل أستاذًا زائرًا بجامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء، حصل على الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية تخصص بلاغة وفلسفة من جامعة القاضي عياض بمراكش سنة ٢٠٠٤، وعلى الإجازة العليا في الشريعة الإسلامية من جامعة القرويين، وعلى ماجستير من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش سنة ١٩٩٨، وعلى ماجستير في الإدارة والتسيير من جامعة ابن زهر، عضو منتدى الحكمة للمفكرين والباحثين بالمغرب، حائز على الجائزة التقديرية للعلوم الاجتماعية والإنسانية التي نظمها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات بقطر، وقدمت الجائزة في المؤتمر السنوي الثاني للعلوم الاجتماعية والإنسانية الذي انعقد بالدوحة في مارس ٢٠١٣م. يهتم همام بالحركة الإسلامية المغربية وقضايا الفكر الإسلامي، له مؤلفات وأبحاث علمية ومقالات منشورة في مجموعة من المجلات والمواقع الإليكترونية والمراكز المحكمة، من إسهاماته العلمية: (المنهج والاستدلال في الفكر الإسلامي: مساهمة في النقد - الإسلام تنمية: من النقد إلى البناء - المسلمون في ظل العلمانية: واجبات المسلمين وحقوقهم في المجتمعات العلمية: طارق رمضان (ترجمة بالاشتراك) - جدل الفلسفة العربية بين محمد عابد الجابري وطه عبد الرحمن: البحث اللغوي نموذجًا).

(٤) همام محمد، تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم، مركز نماء للبحوث والدراسات، لبنان، ط١، ٢٠١٧م، ص ٧.

نماء. كما أشار الكتاب إلى موجز حول سلسلة دراسات فكرية؛ التي نشر الكتاب ضمنها، وكذا المنهج المتبع في ذلك.

ينتمي الكتاب إلى حقل ابستمولوجيا المعرفة الإسلامية؛ حيث استطاع أن يبرز سمة من أهم سمات العلوم والمعارف في الحضارة العربية الإسلامية، هي سمة التداخل والتشابك بين العلوم التي تجاوزت إلى حد كبير كل الخطابات التي تُروج في الفكر الحديث عن تكامل المعارف، فإذا كانت قيمة التداخل المعرفي من ثمار تآكل الفكر في العلم الحديث، فإنها في الحضارة العربية رافقت منذ البداية نشأة العلوم وتكوّنها، لدرجة يصعب فهم علم معين دون الرجوع إلى كل العلوم والمعارف التي رافقت نشأته وأسهمت في تكونه وكانت جزءًا منه. ولذا فالكتاب دراسة نقدية بالأساس، همّ الكاتب فيها تجاوز التخصص والتفكيك العلمي الحديث إلى عالم التداخل، متخذًا من تكامل العلوم الإسلامية وتداخلها مع العلوم والمعارف الاجتماعية والإنسانية والفلسفية أرضية لبلوغ الرؤية الشاملة المتكاملة وتحقيق غايات ذلك النقد العلمي.

المحور الثاني: غلاف الكتاب

جاء الغلاف باللون الأصفر الفاتح، في واجهته الأمامية مربع باللون الأزرق يضم شعار المركز واسمه، في أعلى الواجهة، وتتوسط الكتاب صورة مكونة من قطع متعددة ومختلفة الشكل والحجم واللون، تعبيرًا عن التداخل المعرفي بين العلوم والتخصصات، وجاء العنوان الكامل أسفل الصورة، ثم ينتهي المربع الأزرق؛ حيث يأتي اسم الكاتب (د. محمد همام) باللون الأسود على الخلفية الصفراء. وفي الوجه الداخلي للواجهة الأمامية، صفحة في التعريف بمركز نماء للبحوث والدراسات ناشر الدراسة[٥].

أما ظهر الكتاب فيضم من جديد الصورة التي تتوسط الجهة الأمامية نفسها، مع الإجابة في ثلاث فقرات على السؤال المعتاد: لماذا هذا الكتاب؟ وقد أشار فيها الكاتب إلى أهمية التداخل المعرفي وخطورة التخصص، وكذا أهمية الدراسة في هذا المجال، إضافة إلى سيرة موجزة للباحث المؤلف (محمد همام) وضعت في مربع أزرق، وقد أحلنا إليها بنوع من التفصيل والتوسيع في بداية هذا المبحث.

المحور الثالث: مقدمة الكتاب

يشير الباحث في مقدمة الدراسة إلى أهمية التداخل المعرفي؛ حيث يبقى هو الموضوع الأساس الذي بنيت عليه الدراسة، مع ارتباطه

(٥) باعتباره مركزًا بحثيًا، يعنى بتنمية العقل الشرعي والفكري، وتطوير خطابه وأدواته المعرفية بما يمكنه من حسن التعامل مع تراثه الإسلامي والانفتاح الواعي على المعارف والتجارب العالمية المعاصرة. ويسعى المركز إلى بناء خطاب إسلامي معتدل، متصل بحركة التنمية، وحسن الفهم لمحكمات الشريعة، قوي الانتماء لها، قادر على الاقتناع بها، ويمتلك في المساحات الاجتهادية المرونة والمهارة والآداب الكافية، خطاب حسن الفهم للأطروحات الفكرية المعاصرة، قادر على فهمها وفحصها ونقدها... إلخ.

الوثيق بمجموعة من القضايا المعرفية والمنهجية من جهة، والتاريخية والثقافية من جهة أخرى. وهذا الارتباط سيدفع الباحث إلى الاستعانة بحقول معرفية كثيرة في دراسته لمسألة التداخل المعرفي، باعتبارها أصل العلاقة بين العلوم، والصورة الحقيقية للإبداع الإنساني المعرفي.

يحدد هام دوافع اختياره لموضوع الدراسة، فيحددها في عاملين أحدهما علمي موضوعه، تأتى للباحث من خلال تعامله مع تصانيف التراث الإسلامي، وانبهاره بما بين العلوم من تداخل، وبما تميز به علماء الحضارة الإسلامية من موسوعية جعلتهم يصهرون معارف وعلومًا كثيرة في إطار مشاريعهم الفكرية. والثاني فكري وذاتي يكمن فيه رغبة الباحث في الخروج من ضيق التخصص إلى حقل التداخل المعرفي الذي يعتبر قيمة الإبداع الإنساني، ومن خلال شعور الكاتب بمسؤوليته كباحث في إبراز خلفيات التخصص التاريخية والحضارية والمعرفية، والبحث عن السبل الكفيلة بإعادة زمن المعرفة المبدعة المثمرة، وفي إيمانه بأن التخصص من أهم العوامل التي أسهمت في جمود العلوم في الحضارة العربية الإسلامية؛ خاصة العلوم الشرعية والأدبية والثقافية.

ويستند الكاتب في مناقشة أفكار الدراسة على الإمامين الغزالي وابن تيمية باعتبارهما من أبرز الأعلام الموسوعيين في الحضارة العربية الإسلامية، بل أهم العلماء الكبار الذين ناقشوا مسألة التداخل المعرفي، وحاجة بعضها للبعض الآخر، وإن اختلفوا في مسالة تكامل العلوم الإسلامية والعلوم اليونانية الوافدة من قبيل المنطق والفلسفة. ويتبع هام المنهج النقدي في بسط الآراء وتحليلها بحثًا عن أسرار التداخل المعرفي وتاريخه ومنعرجاته في السياقين العربي الإسلامي والغربي، وفي أذهان وعقول علمائها الكبار.

المحور الرابع:
مصادر ومراجع الدراسة

اعتمد الباحث قائمة من المصادر والمراجع في أكثر من مائتي مصدر ومرجع منها العربية، والمترجمة، رتبها ترتيبًا ألفبائيًّا حسب الأول من عنوان الكتاب، وما يقرب من ثلاثين دراسة أجنبية رتبها حسب اسم الكاتب، وفي هذا التنوع والتعدد ما يشير إلى موسوعية الرجل وسعة علمه وثقافته، خاصة أن البيبليوغرافيا تتوزع على تخصصات وعلوم عديدة، إضافة إلى أن السيرة العلمية لهام تؤكد اطلاعه ودراسته في شعب وتخصصات معرفية متعددة وتخرجه في جامعات عريقة، وكل ذلك يجعل الكاتب مؤهلًا للحديث عن مسألة التداخل بين المعارف والتخصصات وقيمتها العلمية الإبداعية في زمن التخصص الضيق المنغلق بنوع من الدقة والعمق.

المحور الخامس: خاتمة الكتاب

جعل همام خاتمة الكتاب في ثلاث صفحات أشار فيها إلى أهم الخلاصات المتوصل إليها، وذلك عبر فقرات متناسقة متكاملة، حيث أكد من جديد على أهمية التداخل المعرفي باعتباره آلية تحليلية ضرورية وخطيرة في الوقت نفسه، لطبيعتها ومجال اشتغالها وشموليتها، خاصة أنها تستغرق كل مجالات وظواهر المعرفة الإنسانية من علوم ونظريات ومناهج ومفاهيم وغيرها.

إن التداخل المعرفي المثمر -حسب همام- هو الأصل في تاريخ المعرفة الإنسانية المبدعة، ولا سبيل للخروج من ضيق التخصص والتخلص من قدسيته وحصونه الفكرية المغلقة، إلا بالتداخل المعرفي والاندماج في إطار شبكة من الأنظمة التواصلية بين العلوم، دون تغييب الجانب التداولي للمعرفة باعتبارها من الأسس المنهجية الضرورية في موضوع التداخل المعرفي، خاصة عندما يتعلق الأمر بمسألة اختلاف السياق الحضاري والمعرفي.

المبحث الثاني: المعارف بين التخصص والتدخل؛ قضايا وإشكالات

يناقش الكاتب في القسم الأول من الدراسة، وهو موضوع هذا المبحث، مسألة التداخل بين المعارف وسياق ظهورها في عالمنا المعاصر، وعلاقة ذلك بما وصل إليه التخصص الدقيق من آفاق مغلقة. وعلاقة البحث بمعارف جديدة منها تاريخ العلم وفلسفته ونظرية المعرفة.

ويشتغل في هذا القسم على دراسة مجموعة من القضايا المعرفية، تسهم جميعها في إدراك «خطورة التركيز على تداخل المعارف، باعتبارها آليه تحليلية لمقاربة مجموعة من الظواهر المعرفية، لأن هذا التداخل في عمقه هو حديث على أرضية متحركة، بل متوترة؛ هي خطورة التماس الفاصلة بين التخصصات المعرفية، فليس سهلًا إذن، تأسيس بناء معرفي على أرض غير ثابتة كما أنها غير متجانسة المكونات، هذه المكونات يشكلها أصحاب التخصصات على جانبي خطوط التماس تلك»[٦].

ويبرهن الباحث على مسألة المعرفة الكلية في التاريخ بقضيتين اثنتين، تكمن الأولى في الدراسات التي اشتغلت على العقل ودوره في تحديد الرؤية الكلية والإطار المعرفي؛ حيث تعتبر المعارف صورة للعمليات العقلية وانعكاسًا لها، وهو ما يدفع إلى البحث في العقل للوصول إلى حقيقة المعرفة، وتكمن الثانية في قضية تصنيف العلوم، باعتبارها من أبرز المباحث التي عمقت الترابط والتداخل المعرفي كما وردت عند كثير من العلماء الموسوعيين

(٦) همام محمد، تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم، ص ١٧.

أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن خلدون وغيرهم.

اخترنا تناول أهم القضايا التي يتضمنها هذا المبحث عبر مجموعة من المحاور، منها مفهوم التداخل المعرفي وأسرته المفهومية، وتاريخ بداية التخصص وعوامله، وحقيقة التداخل التاريخية، وبداية بروزه من جديد في العصر الحديث، وكذا معوقات التداخل المعرفي، وهي أبرز القضايا التي يناقشها القسم الأول من الدراسة، مع أننا لن نكتفي بعرض مضامين الكتاب وأفكاره بشأن هذه القضايا، بل سنشير إليها كما هي في تصورات بعض الرواد ممن كتبوا في مسألة التداخل والتكامل المعرفي.

المحور الأول: في معنى التداخل المعرفي وأسرته المفهومية

اختار همام اعتماد مصطلح التداخل على كل المصطلحات المعتمدة في هذا الحقل المعرفي: «باعتباره آلية تحليلية أو تفسيرية لظواهر معرفية تتعلق بالعلاقات بين العلوم وتفاعلها لمعالجة إشكالية بحثية»[٧]، وهو «بحث في العلوم والأفكار حول الأدوات المستعملة وحدود الاستعمال وكشف مستوى التداخل في العلاقات الإبستمولوجية بين المعارف والعلوم، وبين القيم والأخلاق والأنساق والمفاهيم والمناهج»[٨]. وقد تتبع أصوله اللغوية في القواميس العربية القيمة وإن آمن منذ البداية أن المعاني اللغوية لن تفيد كثيرًا ما دام التداخل يقصد به ظاهرة علمية ومعرفية حديثة.

ولأن مصطلحي التداخل والتكامل يقصد بهما «اندراج العلم الواحد تحت أكثر من علم لكونه يستفيد منها جميعًا، مما يجعله متفرعًا من أكثر من علم»[٩]، فإن الباحثين اختلفوا في اختيار المصطلح الأنسب والسليم لهذه العلاقة، حيث يرى البعض أنها علاقة تداخل معرفي لا غير. في حين ينظر إليها البعض الآخر على أن قيمة هذا التداخل تكمن في التكامل والتعاون لغايات معرفية محددة.

يذهب همام إلى أن مصطلح التداخل يعاني خلطًا كبيرًا بمفهوم التكامل الذي استعمل بشكل كبير في الدراسات الحديثة، لأن مصطلح التكامل يحمل معه الحمولة النفعية، خاصة أنه نشأ أول الأمر في حقل الاقتصاد. وقد اختار همام اعتماد مصطلح التداخل في دراسته، يقول: «رجحنا لفظة "التداخل" على "التكامل" لشمولية مصطلح التداخل، واتساعه أكثر من التكامل، ولأن التداخل ليس بالضرورة تكاملًا، ثم إن التكامل

(٧) همام محمد، تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم، ص ٧٢.

(٨) المرجع نفسه، ص ١٠٨.

(٩) ناهد محمد بسيوني سالم، منطق تصنيف العلوم في نظم التصنيف العربية الإسلامية: قراءة تحليلية مقارنة بنظم التصنيف العربية الحديثة، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، ص٧٣.

لا يحقق بالضرورة المطلب العلمي الأساسي، وهو الإبداع المكثف والتناول الشامل للظواهر المعرفية المعقدة، كما أن لفظ التداخل يفتح فرصًا للتواصل بين العلوم، من دون تكامل بينها، جزئيًّا أو كليًّا»[١٠].

فإذا ميز همام بين مصطلحي التداخل والتكامل، واعتبر أن التداخل المعرفي هو الأقرب إلى الصواب، فإن فتحي ملكاوي يرى أن هذا التعدد في المفاهيم يصاحبه قدر من التشويش في السعي لتحقيق الغاية المرجوة من فكرة التكامل، ويرى في المقابل أن «مصطلح التكامل أكثر وضوحًا في دلالته (...) وبخاصة إذا كان التكامل يعني أن علمًا معينًا يحتاج إلى أن يتكامل مع علم آخر أو أكثر، من أجل تطويره وتقدمه؛ أو يعني حاجة الإنسان في فهمه لعلم معين إلى علوم أخرى تعين في تحقيق هذا الفهم»[١١]، كما يقصد به «الإدراك التام الواعي للحقائق المتصلة بالوجود الإلهي والكوني والإنساني، وما ينتظم به من سنن، وما ينشأ عنه من علوم ومعارف؛ تظهر به الآثار العلمية والجمالية للمعرفة في ربط أجزاء ذلك الوجود وانتظام علاقاته وفق هداية الوحي»[١٢]. وهو عند الحسان شهيد: يعنى بالتكامل ذلك التمادد في الخدمات والتبادل في المنافع العلمية بين العلوم، أي هو ما يعبر عنه بثنائية الإمداد والاستمداد في كل علم مستند إليه في بناء معرفة مفيدة تعود على الإنسان والكون بالنفع والتنمية والصلاح»[١٣].

وبين هذا وذاك يستعمل بعض الباحثين مصطلحي التكامل والتداخل بمعنى واحد، فقد استعمل المسكيني المصطلحين في دراسته، وأورد عبارة: (تكامل العلوم وتداخلها)[١٤] في أكثر من موقع، ومع ذلك، فإن المسكيني من خلال عنوان البحث ومحاوره يعتمد بشكل كبير على مصطلح التكامل. ونجد هذا الترادف كذلك عند طه عبد الرحمن وغيره من الباحثين.

ويرى همام من جهة أخرى أن مصطلح التداخل يلتبس مفهومه بمجموعة من المصطلحات الأخرى، معظمها مترجم عن المصطلحات الأجنبية، منها التشابك والتبادل والتعاون وتعدد الاختصاصات، ومنها كذلك الاندماج والتفاعل والتعالق والتراكب والانضمام والتناظم وغيرها. وقد استعمل عبد الفتاح الزويني التداخل والتكامل والتوافق

(١٠) همام محمد، تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم، ص ٧٦.

(١١) ملكاوي حسن فتحي، مفاهيم التكامل المعرفي، ضمن الكتاب الجماعي: التكامل المعرفي: أثره في التعلم الجامعي وضرورته الحضارية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، تحرير رائد جميل عكاشة، ط١، ٢٠١٢م، ص٥٢.

(١٢) الدغامين زياد، التكامل المعرفي في القرآن الكريم، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، مج ٩، ع ١/أ، ٢٠١٣م، ص١٨١.

(١٣) الحسان شهيد، التكامل المعرفي بين العلوم، روافد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط١، ٢٠١٣.

(١٤) المسكيني محمد، مقدمات العلوم: هم الاستقلال ومقصد التكامل، مركز نهوض للدراسات والنشر، الكويت، ص٣، ص١٠.

بمعنى واحد[١٥]، ومن الباحثين من يستعمل التداخل والتكامل والتلاحم والتفاعل كذلك[١٦]، ومنهم من يستعمل مصطلح التجسير للتعبير عن عملية مد الجسور[١٧] بين العلوم: وهو من الجسر الذي يربط بين جزر منفصلة ومتباعدة، ومنه كذلك التفاعل بين العلوم[١٨]، ونجد من الباحثين من يستعمل مصطلح تمازج العلوم؛ وهو مصطلح يدل على أن العلوم مزيج وخليط متكامل ومتداخل، ومن الباحثين من يستعمل تعدد بنية المعارف، واجتماعها وتواردها[١٩]، والتفاعل بينها، والتزاوج والتوالد بين العلوم؛ حيث يظهر فرع جديد نتيجة التقاء علمين من قبيل علم اللغة الاجتماعي، حيث يتم معالجة قضية لغوية تتعلق بالمجتمع، أو مقاربة ظاهرة اجتماعية ولغوية من زاوية علم الاجتماع مما يجعلنا داخل إطار علم الاجتماع اللغوي.

إن الغاية من وقوف الباحث على هذه المصطلحات هو إبراز مدى قصورها في التعبير عن المعنى الدقيق للتداخل باعتباره آلية تحليلية وتفسيرية لعلاقات الترابط والتواصل بين المعارف، ليخلص في نهاية المحور إلى القول: «ويبقى بنظرنا مصطلح "التداخل"، الأكثر دلالة، والأكثر كثافة من الناحية المصطلحية للتعبير عن هذا التوجه العلمي الجديد (...) بل إن المصطلحات التي ذكرناها سالفًا تعتبر رافدًا غنيًّا لمصطلح "التداخل" وتجليًا جزئيًّا من تجلياته، أما مصطلح "التداخل" فهو محور العملية ونواتها الصلبة»[٢٠].

تتعدد المعاني الاصطلاحية لمصطلح التداخل وتختلف فيما بينها، وهو ما دفع همام إلى تحديدها من عدة زوايا، استنادًا إلى تصورات مجموعة من العلماء الغربيين، هي:

- معنى التداخل من حيث العلاقة والوظيفة معًا: جمع عناصر متعددة ومتناثرة من تخصصين أو أكثر في البحث أو التعليم، لتحقيق أداء معرفي جديد لا يمكن تحصيله بغيره.
- معنى التداخل من العلاقة فحسب: نظرية في اختراق العلوم وخلق علم تداخلي.
- معنى التداخل من حيث الهدف: تيار فكري يهدف إلى محو الحدود بين العلوم، وإعادة تنظيم ميادين المعرفة من خلال التركيب بين التخصصات، وهو كذلك أداة فعالة لإحداث تغييرات تربوية وجوهرية في مسار التربية والتعليم.
- معنى التداخل من ناحية فلسفة العلم: إعادة النظر في العلم نفسه.

(١٥) الزويني عبد الفتاح، علوم الوحي والعلوم الدقيقة: تجليات التوافق والتداخل، دورية نماء لعلوم الوحي والدراسات الإنسانية، السنة الثانية، العدد ٤-٥، صيف خريف ٢٠١٧-٢٠١٨، ص٢٢٨.

(١٦) بنعمر محمد، المصطلح وأثره في رحلة المفاهيم، مركز نماء للدراسات والبحوث، بيروت-لبنان، ص٤.

(١٧) المسكيني محمد، مقدمات العلوم: هم الاستقلال ومقصد التكامل، ص٣.

(١٨) المرجع نفسه، ص٣.

(١٩) وردت هذه المصطلحات عند عبد الرحمن بودرع، في كتابه الأسس المعرفية للغويات العربية.

(٢٠) همام محمد، تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم، ص ٨٠.

– معنى التداخل من الناحية الإبستمولوجية: قانون العلوم أو الإطار الموحد للمناهج العلمية، أو هو نوع من مساءلة المعرفة في جوهرها واختبار العلوم من موضوع واحد.

ويرى همام أن هذه التعاريف وجهت لها انتقادات كبيرة، وأنها ما تزال في الحاجة إلى الضبط والدقة لاستيعاب هذا التعدد، ورصد هذه العلاقات التعاونية وأشكالها، وهو ما يجعلنا أمام ضرورة تأسيس نظرية تداخل المعارف باعتبارها إطارًا نظريًّا يمكننا من ضبط مستوى هذا التداخل والتفاعل بين المكونات المختلفة، وتؤهل الباحث إلى الاشتغال في إطار التداخل المعرفي.

المحور الثاني: في عوامل وخلفيات بروز التخصص

ليس التخصص في نظر همام شيئًا واحدًا، وربما ينبغي التمييز بين التخصص السلبي الذي يفقد السمة الإبداعية للعلوم والتخصص المثمر الذي يكون مدخلًا للتداخل المثمر: وهو الذي يبتدئ بإحكام تخصص معين، ثم الإبحار خارجه للإبداع والابتكار، خاصة أن الدراسات العلمية في مجال تاريخ العلوم وفلسفتها قد أثبتت أن الابتكارات العلمية الهامة هي حصيلة مجهود باحثين وعلماء يعملون خارج تخصصاتهم»[٢١]،

(٢١) همام محمد، تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم، ص ٩٩.

وهذا التخصص المثمر -حسب همام-هو الذي من شأنه أن يسهم في التداخل باعتباره آلية فعالة لتعميق البحث التداخلي ومجالًا للتنسيق والتداخل وإغناء البحث وتحقيق الإبداع.

والواضح أن التخصص الضيق قد بدأ مع الحداثة الغربية[٢٢]؛ التي سعت إلى فصل المتصل تحقيقًا لمشروع فصل الدين عن الحياة وفصل الأخلاق عن العلم[٢٣]؛ حيث خرجت العلوم والمعارف عن طريقها الصحيح بعدما تشكلت قديمًا داخل إطار متداخل؛ لذا وجب بالضرورة أن يبرز مبحث التداخل في عصرنا الحديث، ويكون عاملًا مسهمًا في بناء نقد شامل للحداثة الغربية خاصة بعد انغلاق الآفاق، ويسهم «في إزالة الحدود التي اصطنعتها الإبستمولوجية الغربية السائدة بين مسالك المعرفة المختلفة»[٢٤]، كما أنه سيكون وسيلة للخروج من ضيق أحادية العلم، ولتحقيق إنسانيته كي تعود العلاقة السليمة بين العلم والإنسان إلى أصلها الطبيعي بعدما أصبح العلم هو الذي يوظف الإنسان وليس العكس.

(٢٢) يذهب طه عبد الرحمن بدوره في نقد الحداثة الغربية إلى هذا الاتجاه؛ حيث أسهمت في نظره في قطع المتصل وفصل المتكامل في إطار مشروع الفصل الشامل، فصل السياسة والفن والحياة عن الدين والأخلاق.

(٢٣) طه عبد الرحمن، الحوار أفقًا للفكر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ٢٠١٣م، ص ٥٣-طه، عبد الرحمن، سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٠م، ص١١٢-طه عبد الرحمن، بؤس الدهرانية: النقد الائتماني لفصل الأخلاق عن الدين، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط١، بيروت، ٢٠١٤م، ص١٢-حسن فتحي ملكاوي، مفاهيم التكامل المعرفي، ص٢٣.

(٢٤) همام محمد، تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم، ص ١٠٩

أورد همام مختلف الآراء في سبب نشأة التخصص، وهي آراء تختلف فيما بينها، منها من يرى أن التخصص ضرورة حتمية لطبيعة المعرفة والعلم، واستجابة للتطورات السريعة والدقيقة التي يشهدها العالم الحديث، ومنها من يرى أنها نتيجة لخلفيات دينية، منها ما هو مرتبط بألواح موسى؛ حيث كان معه بروتوكول سري لاهوتي يقسم الفكر الإنساني إلى علوم متخصصة وأكاديمية، ومنها أساطير تدعي استفادة الإنسان من مخلوقات مجهولة مما مكنه من بناء معارف جديدة.

يستعرض همام هذه الأسباب فيناقشها ثم يستبعدها، ليقف في النهاية على أن التخصص انتشر لأسباب إدارية ومادية غير علمية أحيانًا، وسياسية أحيانًا أخرى، تجعل الباحثين منعزلين في إطار تخصصاتهم الضيقة في معزل عن العلم في تداخلاته وكليته.

المحور الثالث: في تاريخية التداخل وبروزه من جديد بعد زمن التخصص

يرى همام أن التاريخ كان ملتقى العلوم والمعارف في معظم اللحظات التاريخية التي تشكل فيها العلم، وأن المؤرخين «باحثون خارج حدودهم، كثيرًا ما يستمدون من جيرانهم، وهذا ما أدى بالبعض إلى التساؤل عن جدوى إحداث قسم للتاريخ في الجامعات بالنسبة إلى البحث العلمي؟»[٢٥]، وإن أشار في الوقت نفسه إلى اللاهوت والجغرافيا والسوسيولوجيا واللسانيات، باعتبارها نقط التقاء مختلف الفروع العلمية.

والحق أنني لا أدري إلى أي حد يمكن الحديث عن علم معين باعتباره ملتقى العلوم عندما يتعلق الأمر بمسألة التداخل المعرفي؛ خاصة أن التراث الإسلامي يعتبر صورة للتداخل والتكامل المعرفي في معظمه، وقد لا يكون التاريخ حاضرًا بشكل قوي في بعض العلوم، خاصة الشرعية والإسلامية في تداخلها مع باقي المعارف في الحضارة العربية الإسلامية.

تكمن أهمية دراسة همام في التتبع التاريخي لقضية التداخل، فإذا كان التداخل المعرفي هو الطابع الذي ميز العلوم والمعارف عبر التاريخ، وكان صورة الإبداع الإنساني، فإنه سوف يبدأ في التراجع خلال القرن التاسع عشر؛ حيث ستعرف العلوم الغربية بداية التقسيم والتفكيك، وظهور الفصل التام بين العلوم في مرحلتي الحربين العالميتين، وستبدأ حدود وهمية في الارتسام بين مختلف العلوم، ويعمل رواد الفكر الحديث على محو كل العلاقات التي تؤكد تداخل العلوم، والبحث في المقابل على كل الأسباب التي من شأنها أن تؤكد مسألة الانفصال والتباعد بين العلوم، وهو ما ستسهم فيه المؤسسات التعليمية والجامعات بسبب إحداثها لتخصصات دقيقة بعضها منفصل عن بعضٍ.

ويضيف همام عامل الانشطار المعرفي،

(٢٥) المرجع نفسه، ص ٢٩.

وهو الانقسام الذي تعرفه كل العلوم؛ حيث ينقسم العلم الواحد إلى علوم جزئية يصبح كل جزء منها علمًا مستقلًّا في مرحلة متقدمة، يقول همام: «ليست الانشطارية ظاهرة علمية حديثة، وإنما تعتبر تتويجًا للمراحل التي تمر منها عادة النظريات والأنساق المعرفية، من توسع وتمدد على مستوى أجزائها، إذ تصبح هذه الأجزاء غير قابلة للتطور إلا بمغادرة النظرية الأم، ولو أن انشطار المعارف يغذي التواصل بين العلوم (...) إلا أن هذه العملية، وبفعل حالات التكاثر والاختلاف والتنوع بين الأجزاء التي سبقتها، وكثيرًا ما تتحول تلك الأجزاء إلى نظريات قائمة بذاتها، وتخصصات مستقلة بنفسها»[٢٦]. وقد استشهد همام بمجموعة من العلوم الإنسانية والاجتماعية والدقيقة ليبين مسألة الانشطار العلمي وأنواعه وخصائصه.

وبالرغم من أهمية التداخل المعرفي وخطورة التخصص الضيق في المقابل، فإن همام لا ينكر دور التخصص باعتباره مطلبًا منهجيًّا وظاهرة علمية في عالمنا المعاصر؛ حيث أصبحت بعض التخصصات الناتجة عن الانشطار علومًا ونظريات مكتملة، مما يصعّب على الباحث الذي يؤمن بالتداخل إقناع عالم العلماء بأهمية التداخل وخطورة التخصص.

لم يكن التخصص الدقيق رغم انتشاره وازدهاره مقبولًا عند رواد المعرفة في العالم، فقد تعرض لنقد كبير من قبل مختلف العلماء[٢٧]، وصفه بعضهم بالتوحش والبعض الآخر بالجهل والجنون، وتم تشبيه المتخصصين بالجهال الجدد وعالمهم بعالم الحشرات، تأكيدًا على أن التخصص بالرغم من أهميته أمر مستحيل، وأن الغرب بدوره أصبح يؤمن اليوم بقيمة التداخل بين العلوم والمعارف؛ حيث تم توسيع فكرة التداخل تطبيقيًّا من خلال النظريات المعرفية التي يتم اختبارها خارج حدودها، وفي تداخلاتها مع باقي التخصصات.

كما أصبح التنظير اليوم يبحث عن إيجاد علوم متداخلة لا علوم مستقلة منطوية على نفسها، كما أصبح الهم الأكبر في رسم الآفاق التداخلية للعلم الحديث، مركزًا على مواصلة البحث العلمي التكاملي عبر التاريخ شيئًا فشيئًا، وبدأ يملأ الفراغات الناتجة عن التخصص بالرغم من أن مسألة التداخل ما تزال غامضة وتحتاج إلى مزيد من الجهد بسبب ما تواجهه من أسئلة محرجة عن طبيعة ومستقبل العلم.

وأصبح العلم كذلك في العصر الحديث بسبب خلق التداخلات بين العلوم عاملًا مهمًا في إبراز الحدود الوهمية المصطنعة في بعض التخصصات كالاقتصاد وعلم النفس واللسانيات، ومن ثم تلاشي التخصص مقابل التواصل المكثف بين العلوم خاصة بعدما

(٢٦) همام محمد، تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم، ٤٦.

(٢٧) ينظر على سبيل المثال، النقد الذي أورده همام في محور (أزمة التخصص) من ص ٥٢ إلى ص٥٦.

أثبتت تجارب علمية عجز التخصص في الإجابة على كثير من الأسئلة المعرفية مقابل النجاح الذي حققته المعارف المتداخلة والإنجاز العلمي الناتج عن تعاون المعارف وتداخلها.

يعود همام من جديد للحديث عن الأسباب التي أدت إلى بروز ظاهرة التداخل، ويقسمها إلى أسباب ظاهرة، منها كون ظاهرة التداخل أصبحت مطلبًا إنسانيًّا وواقعيًّا في ظل الإشكالات التي تطرحها العلوم فتحتاج إلى علوم وتخصصات أخرى لحلها، ومنها دعاوى توحيد العلم والعقلية الأحادية المتعطشة إلى عالمية المعرفة واللغة وتوحيد الثقافة. وأسباب خفية منها مسألة التحيز الاعتقادي في العلم الغربي؛ حيث إن تبني العقل الغربي لظاهرة التداخل المعرفي -في نظر همام- ليس مبنيًّا على رغبته في تأسيس نسق علمي صارم تخضع له كل العلوم فقط، ولكن بغاية ضخ تحيزاته في قوالب علمية منيعة، وإكراه الناس جميعًا على تلقيها تحت غطاء النسقية العلمية»[٢٨].

ثم إن كشف هذه الخلفيات في نظر همام لا تعني عدم وجود غايات علمية نبيلة من فكرة التداخل، ومنها كذلك فكرانية[٢٩] قصة العلم، وما تعرض له من السطو الغربي عبر إلغاء الجهود الإنسانية العلمية والمعرفية والتشهير بعلمه وأعلامه وتراثه، وعودة مسألة توحيد العلم في نظر همام وراءها غايات فكرانية، منها إرجاع العلم إلى منبع واحد هو الإغريق وإلغاء باقي الحضارات والثقافات.

يرى همام أن هذا التوجه العلمي الجديد ظهر في الغرب بالأساس، بعدما أوصلته الحداثة الغربية إلى الأفق المسدود، وبدأ التشكيك في قيمة العلم المادي، ومدى قدرته على الحفاظ على أمن الإنسان وسعادته، وهو ما دفع جماعة من العلماء الغربيين إلى التحذير من هذا الخطر، والدعوة إلى ورفع شعار تداخل المعارف، يقول همام: «المجال الغربي كان سباقًا إلى طرق الموضوع بشكل واعٍ ومنهجي، ومقصود»[٣٠]. إضافة إلى عدد

(٢٨) همام محمد، تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم، ص ٩٣.

(٢٩) الفكرانية مصطلح أبدعه طه عبد الرحمن ويقصد به الأيديولوجية. يقول طه في الإحالة الأولى من كتابه (تجديد المنهج في تقويم التراث: «لقد غلب على الاستعمال لفظ "الأيديولوجيا" الذي أخضعه البعض لمقتضى الصرف العربي. فقال "أدلجة" و"أدلوجة"، غير أن تعريب هذا اللفظ على هذا الشكل لا يلبث أن ينقل إليه المعنى اللغوي الذي يقترن بالمادة /د، ل، ج/ والذي فيد معنى "السير في الليل"، مما يجعل هذا المفهوم معرضًا لأن يحمل معنى قدحيًّا لا يليق ببعض المنازع الأيديولوجية النافعة؛ لذا آثرنا اشتقاق المصدر الرباعي: "الفكرانية"، بالقياس على صيغة العقلانية، تجنبًا للأخذ بهذا المعنى القدحي المحتمل، واعتقادًا بأن الباعث على استعمال هذا الاشتقاق هو واحد في المصطلحين: "العقلانية" و"الفكرانية"، فضلًا عن أن اشتراكهما في هذه الصيغة يفيد في المقارنة بينهما». ويحيل عليه كذلك في الكتاب الأول من فقه الفلسفة، الفلسفة والترجمة؛ حيث يقول في الإحالة الأولى من الصفحة ٥٩: نستعمل لفظ فكرانية في مقابل المصطلح الأجنبي «Idéologie».

(٣٠) همام محمد، تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم، ص ٨.

كبير من الملتقيات التي جمعت نخبًا من كل التخصصات إلى أن أصبح الموضوع عالميًّا من حيث الجغرافيا أولًا، ومن حيث المجالات العلمية والمعرفية والثقافية التي أصبحت تنطلق من مبدأ التداخل والتكامل بين المعارف. وإن كان ما يزال العالم العربي في نظر همام يعيش فقرًا كبيرًا في هذا التخصص العلمي الجديد[٣١].

ويعتبر إدغار موران[٣٢] -حسب الباحث- من أبرز الأعلام الغربيين الذين أسهموا في بروز هذا التخصص من خلال مؤلفاته العلمية، إضافة إلى جون بول ريزوبرغ[٣٣] وروبار باهر ومتاي دوبان[٣٤]، إضافة إلى مجموعة من المجلات والمؤتمرات العلمية يستعرضها الباحث ويشير إلى أبرز مضامينها وأهميتها في هذا الحقل المعرفي الجديد.

يستعرض همام مبادئ التداخل ودرجاته بين المعارف فيناقش الآراء التي تحدثت عن العلوم التي تحتاج إلى التداخل؛ حيث تجعل إزابيل ستينغر التداخل خاصًّا بالعلوم الرخوة، وأنه ثمة علوم صلبة لا تحتاج إلى التداخل، في حين يرى طه عبد الرحمن أن التداخل يعم جميع العلوم، في حين يلغي كانط الفلسفة باعتبارها العلم الذي يمد كل العلوم لا الذي يتداخل معها.

ويرى همام في المقابل أنه يصعب تحديد العلوم التي تحتاج إلى التداخل، وأن كل المعارف تتفاعل فيما بينها وإن اختلف شكل هذا التداخل ودرجته، لدرجة يصعب معها تصور انقطاع المعارف بعضها عن بعض بشكل كلي.

ولتأكيد هذه الحقيقة لجأ همام إلى إبراز بعض أوجه التداخل بين مجموعة من العلوم منها الفلسفة التي تجاوزت احتكاكها بالعلوم الإنسانية إلى العلوم الدقيقة كالفيزياء والمنطق والمنطق الرياضي والرياضيات وغيرها من الفروع المعرفية التي تنتجها هذه العلاقات، ومنها علما الاجتماع والتاريخ وعلاقتهما بعلم الاقتصاد وعلم النفس وعلم الجغرافيا والأنثروبولوجيا والبيولوجيا، ومنها اللغة واللسانيات التي تجد حلولًا لكثير من إشكالاتها في تخصصات أخرى كعلم النفس والأصوات والأنثروبولوجيا والذكاء الاصطناعي والمنطق الشكلي والطب والرياضيات والفيزياء مما أدى إلى بروز فروع لسانية نتيجة هذا التداخل.

(٣١) حاول همام أن يجمع في دراسة له نشرت بمركز نهوض معظم الأبحاث والدراسات المعرفية في مجال التداخل المعرفي حسب تسلسلها الزمني، وأماكن وجودها، من كتب وأبحاث ودراسات في دوريات متخصصة أو متنوعة، أو عرض لكتب في الموضوع، مما يسهم في التخصيب الفكري، وتوسيع آفاق الاجتهاد الفقهي، وتنمية التنوع الثقافي المثمر بين مختلف المذاهب الفقهية والمدارس الفكرية والحقول المعرفية. ينظر محمد همام، تداخل المعارف مدخلًا للتخصيب الفكري مدخل بيبليوغرافي مقارن، مركز نهوض للدراسات والنشر، البحوث والدراسات، الكويت، ٢٠١٨م.

(٣٢) من كتبه الربط بين المعارف وكتاب مدخل إلى الفكر المركب وكتاب العلم الواعي، إضافة إلى عشرات الدراسات في هذا الحقل المعرفي.

(٣٣) خاصة في كتابه رهانات التخصصات العابرة، نحو تكامل المعارف.

(٣٤) ألف كتاب التجديد في العلوم الاجتماعية الهامشية المبدعة.

ومن أوجه التداخل كذلك تداخل الجغرافيا وعلاقتها بالعلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية وعلم الاجتماع والبيئة والهندسة والعلوم السياسية والعلاقات الدولية والأنثروبولوجيا وغيرها، وهو ما أدى إلى بروز بعض التخصصات الجديدة منها البيوجغرافيا والجيومرفولوجية وعلم المناخ والجغرافية الجهوية والحضرية... إلخ.

ومنها الأنثروبولوجيا في علاقتها بالإثنولوجيا والأركيولوجيا وتاريخ الحضارات ودراسة المجتمعات وعلم النفس والقانون والموسيقى والفلسفة والهندسة، ومنها العلوم السياسية وتداخلات علم الاقتصاد والقانون والأيكولوجية وعلم البيئة وغيرها من المعارف والعلوم.

المحور الرابع:
معوقات التداخل المعرفي

إن التداخل المعرفي باعتباره «عملية دمج مسالك المعرفة في مسلك واحد متداخل، يوفر القدرة على التفسير الكلي للكون وظواهره المختلفة»[٣٥]، ويؤدي إلى المعرفة المقرونة بالإبداع باعتبارها نتيجة حتمية لانتقال المعارف وتداخلها، وقد بين هما أهم تجليات هذا الانتقال، ومثل له بانتقال بعض المفاهيم والمناهج والنظريات، كما بين أهم هذه الانتقالات وأشكالها وأهميتها في خدمة التداخل وكذا صعوبتها وما تتطلبه من اهتمام وضبط كبيرين لتجنب الانزلاقات المنهجية والتصورية في مسألة الانتقال.

وبالرغم من أهمية التداخل المعرفي في تجاوز الأزمة المعرفية لعالمنا المعاصر، فإن أمام هذا التداخل -حسب هما- معوقات معرفية إبستمولوجية ترتبط بما عرفته العلوم من حدود دقيقة وتصورات في زمن التخصص، كما أن الجهل بطبيعة المعارف وإمكانية التداخل يمكن أن يكون معوقًا مهمًا في العملية، زِد على ذلك التصورات والمناهج والمفاهيم والنظريات التي تحتاج إلى نوع من الدقة والصرامة في أثناء عملية التداخل.

والثانية تكمن في المعوقات الفكرانية الأيديولوجية التي تستثمر الاختلافات المعرفية في تبرير عدم التواصل بين الباحثين في التخصصات المتداخلة، إضافة إلى الصراعات التي تنشأ بين الباحثين لاختلاف مرجعياتهم الفكرية وانتماءاتهم المذهبية، وما تسهم به المدارس الفلسفية كذلك، وكذا اللغات التي تنجز بها البحوث وطرق التعليم وطريقة تنظيم الجامعات والمؤسسات والمقررات، ومسألة التبعية المعرفية للشيخ، وانعدام النقد والإبداع والإنتاج.

كما ينبغي أن تكون المقاربة التداخلية في نظر هما مقاربة جديدة تراعي

(٣٥) همام محمد، تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم، ص، ١٥٥.

الخصوصيات العربية وتتجنب ما في المقاربة الغربية الحديثة من خلفيات وفلسفات، ثم تكون مقاربة نافعة؛ حيث تكون في خدمة الإنسانية بكل أبعادها المختلفة، وأن تتخلص من التحيزات المادية، وتتحول إلى برامج ومقررات تدرس في المؤسسات والمعاهد[٣٦].

المبحث الثالث: تداخل المعرفة الإسلامية والمعارف الواردة بين الغزالي وابن تيمية

يضم هذا المبحث أهم القضايا التي جاءت في القسم الثاني من الدراسة؛ وهو قسم الوعي النظري بتداخل المعارف في التراث المعرفي الإسلامي، ويشمل مسألتي تداخل المعارف الإسلامية فيما بينها من جهة، وتداخلها مع المعارف الواردة، واختلاف الآراء الناتجة عن النقاش بين العلماء حول ما يفرزه ذلك التداخل من إشكالات معرفية ومنهجية، وقد أشار فيه الباحث إلى الفلسفة والمنطق وعلم الكلام باعتبارها من أهم العلوم الوافدة، وكيف استقبلتها المعرفة الإسلامية بمختلف علومها خاصة أصول الفقه باعتباره منطق أهل الإسلام.

المحور الأول: من التداخل بين المعارف الإسلامية وبينها وبين المعارف الوافدة

توقف همام عند علاقة العلوم الإسلامية بالعلوم الوافدة، وكذا موقف جماعة من الأعلام منها، منهم ابن حزم وابن خلدون وابن رشد والفيلسوف الأندلسي ابن سبعين وابن تيمية وابن القيم وابن سينا والغزالي والشهرستاني والفخر الرازي والآمدي وغيرهم من العلماء الذين ناقشوا مسألة التداخل بين المنطق والفلسفة والعلوم الإسلامية، ليخلص همام إلى أن تداخل العلمين الوافدين (الفلسفة والمنطق)، «لم يكن أمرًا ممكنًا في ظل المعوقات العقدية واللغوية والمنهجية، التي ذكرنا، كما أن الفلسفة والمنطق اليونانيين لم يكونا مزودين من حيث التصور والمنهج بما يستهوي علماء المسلمين وهم في لحظة التألق العقدي واللغوي والمنهجي، فإذا كان الوافد اليوناني قد أتى بضياع عقدي، وجاء في ترجمة قلقة، فقد واجهه امتلاء إيماني عند المسلمين، وواجهته لغة مشرقة ومعجزة، تستمد قوتها ورمزيتها من كونها لغة الوحي، وإذ كان قد جاء بمنهج تأملي مجرد فقد واجهه منهج استقرائي تجريبي نافع»[٣٧].

(٣٦) المرجع نفسه، ص١٥٢.

(٣٧) همام محمد، تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم، ص ١٨٨.

ثم تحدث عن علم أصول الفقه باعتباره -حسب همام- منطق أهل الإسلام، إضافة إلى أنه يشكل النموذج المنهجي الأمثل الذي وصلت إليه العقلية الإسلامية في مرحلة إنشاء العلوم وتقعيدها، منذ نشأته مع الغزالي والشافعي[٣٨]؛ حيث كانت له علاقات مباشرة وغير مباشرة مع كل المعارف الإسلامية من فقه وحديث ولغة وكلام وتفسير وغيرها.

يقول همام: «وبقيت اللغويات والكلاميات والمنطقيات أكثر المعارف تداخلًا مع علم أصول الفقه في التراث المعرفي الإسلامي»[٣٩]. وقد أشار إلى أهم القضايا التي برز فيها هذا التداخل، إضافة إلى أبرز الأعلام الذين استطاعوا الإبداع في مجال اللغويات في تداخل مباشر مع أصول الفقه.

وتوقف الباحث على ما بين علم أصول الفقه وعلم الكلام وما يستفيده كل علم من الآخر، وبعض المسائل المشتركة بينهما، ليعود من جديد إلى مناقشة آراء بعض العلماء الذين تحدثوا عن علاقة العلوم الإسلامية؛ خاصة علاقة أصول الفقه بالفلسفة والمنطق اليونانيين، منهم ابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ) وابن العربي المعافري (ت ٥٤٣هـ)، وأبو إسحاق الشاطبي والفقيه الحنفي المصري الكافيجي والغزالي والسيوطي وابن خلدون وغيرهم، إضافة إلى بعض المستشرقين الذين تحدثوا في الموضوع.

(٣٨) المرجع نفسه، ص ١٨٩.

(٣٩) همام محمد، تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم، ص ١٩٤.

المحور الثاني:
تداخل المعارف الوافدة والمعرفة الإسلامية بين الغزالي وابن تيمية

خصص همام حيزًا مهمًا في هذا القسم لدراسة مسألة التداخل المعرفي بين عالمين كبيرين من أعلام الحضارة الإسلامية هما الغزالي وابن تيمية؛ اللذان عرفا باختلافهما في هذه المسألة؛ حيث يرى الغزالي «أن تطوير البناء الاستدلالي للعلوم الإسلامية، وإغناء قدرتها التحليلية والمنهجية يمر عبر تداخلها مع المنطق اليوناني» وهو تصور مناقض لابن تيمية، الذي يرى أن سعي الغزالي في حقيقته «تدمير لبناء العلوم الإسلامية، وتخليط للمعارف، وبث للزيغ والشك في قلوب المسلمين، وبالتالي وجب التصدي لهذه العملية وإبطال أدلتها عقلًا ونقلًا»[٤٠].

إن مشروع الغزالي وما تعرض له من نقد من ابن تيمية في الحقيقة صورة للحوار المثمر الذي ميز الحضارة الإسلامية في زمن الازدهار، وذلك لأن الرجلين من كبار العلماء الذين أسهموا إلى حد كبير في تأسيس صرح المعرفة الإسلامية. فالغزالي أصولي وفيلسوف على مذهب الأشاعرة، انطلق من ضرورة استثمار الآليات المنطقية في المباحث

(٤٠) المرجع نفسه، ص٢٥٨.

الأصولية، والاستعانة بما أنتجه العقل الإنساني من المناهج والآليات للوصول إلى الحق والصواب ما دام العقل هو الذي تبث به الشرع؛ متأثرًا في ذلك بشيخه الجويني متبعًا منهجه ومنحاه.

وقد دافع الغزالي عن مشروعه التداخلي من خلال تآليفه القيمة فاستطاع الدخول في نقاشات علمية مع منتقديه من جهة، كما حاول إثبات تصوراته وآرائه والرد على الانتقادات الموجهة إلى مشروعه من جهة ثانية.

أما ابن تيمية، فإنه اكتسب شهرته الكبيرة -حسب همام- من خلال نقده لكثير من الفرق الكلامية واللغوية والفقهية وواجه المعارف الوافدة، ورفض تداخل المعارف اليونانية مع المعارف الإسلامية، وانتقد المشائين من أتباع أرسطو، وقسا عليهم كثيرًا»[٤١].

وقد ناقش همام منطلقات وخصائص ابن تيمية في رده على الغزالي، وهدمه لمسألة تداخل المعرفة الإسلامية مع العلوم الوافدة، وذلك بهدمه لأهم الأسس التي بني عليها مشروع الغزالي، منها نقد المنطق اليوناني ولغة علماء التداخل، والشك بل إنكار قيمة المنطق وأهميته في حماية العقل وحفظه من الزلل، ومسألة الحدود والاستدلال وغيرها. إلا أن الأهم في نقد ابن تيمية هو الاستناد إلى الأسس والمنطلقات المعرفية للعلم والمعرفة بين الحضارتين العربية الإسلامية واليونانية، وينطلق في ذلك من كشف سلبيات الفكر اليوناني من وجهة نظر إسلامية ليقنع الباحثين بخطورة مشروع الغزالي في الدعوة إلى التداخل بين المنطق والفلسفة والعلوم الوافدة بشكل عام مع التراث المعرفي الإسلامي.

يختم همام دراسته بالإشارة إلى بعض المحاور المتداخلة في الحقل الأصولي، وكذا القيمة التداولية لمشروع الغزالي ومشروع ابن تيمية، وأسباب انحسار عمليات التداخل بين الأصوليات والمعارف اليونانية إلى أن جاء الشاطبي؛ حيث استطاع -في نظر همام- الجمع بين المشروعين في إطار مشروع أصولي يستند إلى الشروط التداولية للمعرفة الإسلامية في تحديد درجة التداخل والانفصال بين الأصوليات والمنطقيات، مع أن مجهود الشاطبي لم يفهم حيث استمر التعصب لأحد الاتجاهين.

يقول همام ملخصًا هذه الأفكار ومؤكدًا ضرورة الاتجاه بالبحث العلمي من جديد نحو التداخل المثمر: «لقد استفاد إذن، الشاطبي من مشروعين مختلفين، واحد يدعو إلى تداخل المعارف، والآخر يرفض ذلك، مرة جزئيًّا، ومرة كليًّا، وحاول أن يجمع بين الرأيين، تحقيقًا لمنهجه في الموافقة والتأليف بين الآراء المتعددة، إلا أن البحث الأصولي لم يستوعب -بنظرنا- عمق عملية الجمع هذه

(٤١) همام محمد، تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم، ص ٢٢٧.

التي أنجزها الشاطبي، فتم التشيع من جديد لأحد الاتجاهين، إما لاتجاه الغزالي بصبغته المنطقية، أو لاتجاه ابن تيمية بصبغته اللغوية، فبقي البحث الأصولي موزعًا بين طرفين، وغير مستفيد من إمكانات التداخل النافعة في حدود الشروط التداولية اللازمة، مما جعل بروز خطاب التداخل بين المعارف، داخليًّا وخارجيًّا، أمرًا ملحًا، ومنطلقًا أساسيًّا، لبناء نظرية في المعرفة العربية الإسلامية متينة»[٤٢].

وتبقى دراسة همام من أبرز الدراسات المؤسسة لمسألة التكامل المعرفي في الثقافة العربية إلى جانب دراسات وأبحاث أخرى، إضافة إلى عدد مهم من المؤتمرات والندوات التي حاولت إبراز جملة من القضايا النظرية والتطبيقية، ومع ذلك فإن الثقافة العربية الإسلامية ما تزال في الحاجة إلى مزيد من البحث والعمل في هذا الحقل المعرفي.

خاتمة

نجمل أهم الخلاصات والنتائج المتوصل إليها في النقط الآتية:

- جاءت دراسة همام (تداخل المعارف ونهاية التخصص) الصادرة عن مركز نماء ضمن سلسلة من الدراسات الجادة في إطار ابستمولوجيا المعرفة الإسلامية؛ وهي دراسات حديثة تحاول الجمع بين النظرية والتطبيق في التأسيس لحقل تداخل المعارف، وتجاوز الأزمة المعرفية الناتجة عن التخصص الضيق.
- تكمن أهمية الدراسة في التأسيس النظري لأبرز القضايا المتعلقة بتداخل المعرفة في الحضارة الإسلامية، منها الجانب المصطلحي والمفهومي، وتاريخ نشأة التخصص، وبوادر عودة التداخل من جديد، وكذا أهم العوامل المُسهِمة في ذلك، مع التتبع الدقيق لأهم المنطلقات والخلفيات التي كانت وراء هذه القضايا في السياقين العربي والغربي.
- يؤكد همام أن التداخل المعرفي المثمر هو الأصل في نشأة المعرفة الإسلامية، وأنه هو الذي يمثل قمة الإبداع باعتباره آلية تحليلية لمقاربة مجموعة من الظواهر العلمية والمعرفية، مع أن التخصص قد يكون مثمرًا، بل هو مرحلة ضرورية لبناء عالم التداخل.
- يختلط التداخل المعرفي بمجموعة من المصطلحات أبرزها التكامل المعرفي. وقد اختار همام مصطلح التداخل وفضّله على باقي المصطلحات لشموليته واتساعه، ولكون التداخل ليس بالضرورة تكاملًا، وهو في هذا يخالف موقف فتحي ملكاوي الذي يفضل مصطلح التكامل من جهة، وتصورات بعض الباحثين الذين يستعملون المصطلحين في كثير من الأحيان بالمعنى نفسه من جهة ثانية.
- استعملت في هذا الحقل المعرفي كثير

(٤٢) المرجع نفسه، ص ٢٦٩.

من المصلحات للتعبير عما بين العلوم من تفاعل وتواصل، ومنها التشابك والتعالق والتراكب والانضمام والتناظم والتوافق والتلاحم، وتعدد بنية المعارف وتعددها، وغيرها، وهي مصطلحات تختلف في درجة قدرتها على التعبير الدقيق عن المقصود من التداخل المعرفي.

- اعتمد همام منهجًا دقيقًا في رصد المعاني الاصطلاحية للتداخل؛ حيث تحددها من جهات عدة، منها معنى التداخل من حيث العلاقة والوظيفة، ومن حيث الهدف، ومن حيث فلسفة العلم، ومن الناحية الإبستمولوجية.
- يتفق همام مع كثير من الباحثين في دور الحداثة الغربية في بروز التخصص، منهم طه عبد الرحمن؛ حيث تدخلت عوامل سياسية وعقدية وفكرانية في بروز التخصص، وفي تشكيل طبيعة العلم الحديث، وما يرتبط به من قضايا معرفية وحضارية. وأن بروز حقل التداخل المعرفي في العصر الحديث جاء بعدما وصلت المعرفة في الغرب إلى الأفق المغلق، وبدأ التشكيك في قيم العلم، مما جعل التداخل مطلبًا إنسانيًّا وواقعيًّا لتجاوز ما تعانيه العلوم والإنسان معًا من إشكالات. ولأن التداخل في عالمنا الحديث كان قد بدأ في الحضارة الغربية، فإن الباحث في الثقافة العربية الإسلامية يحتاج إلى منهج علمي دقيق في التعامل مع قضايا هذا الحقل المعرفي مراعاة للسياق الحضاري والخصوصية الثقافية.
- بالرغم من أهمية التداخل المعرفي، فإنه -في نظر همام- يحتاج إلى تجاوز معوقات، منها ما يرتبط بمخلفات زمن التخصص، إضافة إلى الجهل بطبيعة المعارف وإمكانية وحدود التداخل، وما يحتاج إليه استيعاب وضبط التصورات والمناهج والمفاهيم والنظريات من دقة وصرامة ومنهجية. ومنها معوقات فكرانية وأيديولوجية وغيرها من الإشكالات الناتجة عن المذهبية وطرق التعليم ومناهجه ومقرراته.
- يبرز همام أهم معالم التداخل المعرفي في الحضارة الإسلامية، وذلك باتباع منهج التأريخ لأبرز المراحل التي شهدت نقاشًا جادًّا بين علماء الإسلام بشأن تداخل المعرفة الإسلامية سواء فيما بين فروعها، أو تداخل علومها بالعلوم والمعارف الوافدة، خاصة الفلسفة والمنطق وعلم الكلام. وقد مثل همام لهذا النقاش الحضاري بعلمين من كبار أعلام الحضارة الإسلامية، هما الغزالي الذي يؤمن بالداخل بين المعرفة الإسلامية والمعرفة الوافدة، وابن تيمية الذي يرفض ذلك.

البيبليوغرافيا

- بنعمر محمد، المصطلح وأثره في رحلة المفاهيم، مركز نماء للدراسات والبحوث، بيروت-لبنان.
- بودرع، عبد الرحمن، الأسس المعرفية للغويات العربية، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٣م.

- الحسان شهيد، التكامل المعرفي بين العلوم، روافد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط١، ٢٠١٣.
- الدغامين زياد، التكامل المعرفي في القرآن الكريم، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، مج ٩، ع ١/أ، ٢٠١٣م.
- الزويني عبد الفتاح، علوم الوحي والعلوم الدقيقة: تجليات التوافق والتداخل، دورية نماء لعلوم الوحي والدراسات الإنسانية، السنة الثانية، العدد ٤-٥، صيف خريف ٢٠١٧-٢٠١٨.
- طه عبد الرحمن، الحوار أفقًا للفكر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ٢٠١٣م.
- طه عبد الرحمن، بؤس الدهرانية: النقد الائتماني لفصل الأخلاق عن الدين، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط١، بيروت، ٢٠١٤م.
- طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢.
- طه، عبد الرحمن: فقه الفلسفة: ١-الفلسفة والترجمة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٨م.
- طه، عبد الرحمن، سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٠م.
- المسكيني محمد، مقدمات العلوم: هم الاستقلال ومقصد التكامل، مركز نهوض للدراسات والنشر، الكويت.
- ملكاوي حسن فتحي، مفاهيم التكامل المعرفي، ضمن الكتاب الجماعي: التكامل المعرفي: أثره في التعلم الجامعي وضرورته الحضارية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، تحرير رائد جميل عكاشة، ط١، ٢٠١٢م.
- ملكاوي، حسن فتحي، منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي. الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٨١، ط٢، ٢٠١٦.
- ناهد محمد بسيولي سالم، منطق تصنيف العلوم في نظم التصنيف العربية الإسلامية: قراءة تحليلية مقارنة بنظم التصنيف العربية الحديثة، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس.
- همام محمد، تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم، مركز نماء للبحوث والدراسات، لبنان، ط١، ٢٠١٧م.
- همام، محمد، التداخل المعرفي: دراسة في المفهوم، ضمن الكتاب الجماعي: التكامل المعرفي: أثره في التعلم الجامعي وضرورته الحضارية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، تحرير رائد جميل عكاشة، ط١، ٢٠١٢م.